مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد بن عبدالله خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الإسلام قد بدأ ينتشر في أوائل القرن السابع الميلادى، وينطلق من أرض إلى أخرى بدعوته النقية الصافية التي تنسجم والفطرة البشرية، ولاغرابة في ذلك فالبشر خلق الله والإسلام منهج الله، وطبيعي أن يكون المنهج متسقاً مع من وضع له. واعتمدت الدعوة الإسلامية على تثبيت العقدية وإرجاء الأمر كله لله مع العمل وفق ذلك، وبما يتطلب من المخلوق أن يقوم به. كما اعتمدت على المساواة بين بني البشر ومحاربة الظلم أينما وجد فأقبل الناس أفواجاً يدخلون في دين الله. وخاف الطغاة وأصحاب النفوذ السيطرة على أنفسهم من هذه الدعوة التي تقف أمام مصالحهم وأهوائهم وطغيانهم فوقفوا في وجهها ولكن لم يلبثوا أن تهاووا أمامها وعمّ الاسلام جزيرة العرب.

وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى فاشرأبت نفوس إلى جاهليتها الأولى، وغرّت نفوس أصحابها فأعلن بعضهم الردة، وامتنع بعضهم عن دفع الزكاة، ولقي كلا الصنفين دعماً من الطواغيت خارج الجزيرة، إلا أن قوة العقيدة قد أخضعت من كان في الداخل، ثم اتجه المسلمون نحو الجوار يقوضون أركان الظلم، وكان يتمثل في دولتي الفرس والروم أكبر دول الأرض يومذاك وأشدها بأساً، ولم يمض أكثر من خمسة عشر عاماً من الجهاد حتى سقطت الأولى، وزالت نهائياً، وورث المسلمون ديارها، وغنموا ما خلفته، وفتحوا أكثر أرض الثانية حتى لم يبق لها إلا مساحات قليلة من الأرض رمزاً لبقائها واستمرارها، وكان الصراع بين الطرفين عدة قرون. وامتد الفتح الإسلامي حتى وصل المسلمون في الغرب إلى مقربة من باريس على حين طرقوا في الشرق أبواب الصين. وكانت الطريق ممهدة أمام انتشار الإسلام وسط إفريقية بواسطة التجارة والاتصال، وكذلك قطع

الاسلام أشواطا بعيدة في الانتشار على كل شواطىء المحيط الهندي سواء في شرق افريقية أم في جنوب شرقي آسيا، بل عمّ في تلك الجهات كلها، وكان المحيط الهندي أشبه ببحيرة إسلامية، وكذلك كان البحر الأبيض المتوسط بعد أن ضعفت أساطيل الروم أمام الأساطيل الإسلامية.

هذه الفتوحات الواسعة قد أصابها توقف مفاجىء إذ ضعفت العزيمة، وفتر الجهـاد، وانصرف الناس إلى الحياة الدنيا يأخذون منها بنصيبهم وقد جاءتهم صاغرة إذ سيقت نحوهم الغنائم، وجبيت إليهم الأموال، فأخذوا بالنعيم، وركنوا إلى الأرض فنقم عليهم مواليهم الذين كانوا وقود الحركات الداخلية، واستخفّ بهم غيرهم الذين كانوا قد هابوهم مدة من الزمن ليست قصيرة عندما كانوا يسيرون على الطريق الصحيحة، فلما انحرفوا عن الخط الإسلامي نشأت العصبيات، وتفرقت الأمة، وذهبت قوتها، وحدث الضعف، وكانت الحروب الخارجية سجالاً بعد أن كانت لصالحهم، ثم كانت دفاعية بعد أن كانت جهادية، ثم أصاب الأمة الوهن، وقد قال رسول الله ﷺ محدثاً عن هذا «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها. فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ ؟. قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يارسول الله وما الوهن ؟. قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[1]

تقدّم أعداء المسلمين ينازلونهم في بلاد الأندلس، ولكنهم هزموا أمامهم إذ دعم المرابطون في المغرب إخوانهم المسلمين في الأندلس الأمر الذي جعل الصليبيين يتجهون إلى قلب بلاد المسلمين لتكون الضربة حاسمة فحدثت الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، وحصل الصليبيون على بعض النجاح إلا أن ردّ الفعل الإسلامي حدثت معه صحوة قليلة، فانهزم الصليبيون وخرجوا من بلاد المسلمين أيام الأيوبيين والمماليك، وعرف الصليبيون نتيجة ذلك أنه لاقبل لهم بحرب المسلمين مادامـوا يتمسكون بعقيدتهم التي هي مصدر قوتهم لذا فقد خططوا لإضعاف هذه العقيدة وإبعاد المسلمين عن دينهم، وجاءت البعثات للتنصير منذ

(١) أخرجه أبو دواد، وغيره، عن ثوبان رضي الله عنه.

ذلـك الـوقت لإحكـام الخطة، وتمكّنت هذه البعثات من التأثير على المسلمين وعطفهم على من يظهر العبادة والتدين حتى ولو كانوا من أعدائهم. ولم تمض غير مدة قصيرة حتى عادت التفرقة إلى المسلمين، وركن بعضهم إلى أعداء الله على الرغم من تحذير الله «يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لايهدى القوم الظالمين»[1]

وحدث ضعف المسلمين، ودبّ فيهم الوهن، وقوي أعداؤهم الذين ركّزوا جهودهم على الأندلس حيث كانت النصرانية في أوربا تمدهم وتساعدهم، واذا كان الدعم يأتي إلى مسلمي الأندلس أحيانا من إخوانهم في المغرب كما حدث في أيام المرابطين ثم في أيام الموحدين وبني مرين، ويقف المد الصليبي. وإذا كانت انتصارات مسلمى الأندلس تحدث أحيانا أخرى إلا أن كل ذلك كان لمدة محدودة إذ أن الخط العام للقوة المسلمة كان يتراجع باستمرار والتناحر بين المسلمين يقع بين مدة وأخرى، وموالاة النصارى تحدث بين وقت وثان، واستمر ذلك مدة حتى تمكن النصارى في النهاية من بسط سيطرتهم على بلاد الأندلس وذلك عام ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م)، وظهرت قوتهم فعدوا ذلك الوقت نهاية للعصور الوسطى التي كانت القوة فيها للمسلمين وبداية للعصور الحديثة.

تلا هذا التفوق النصراني تقدم نحو البلاد الإسلامية الأخرى، ولم تمض مدة طويلة حتى سيطر نصارى أوربا على أرجاء واسعة من العالم الإسلامي، وإزداد إرسال البعثات التنصيرية لتؤدي دورها في التمكين للصليبيين والتأثير على المسلمين ومحاولة صرفهم عن دينهم، واستمرت هذه الطريقة مدة طويلة من الزمن بقيت حتى يومنا هذا، وامتازت بعض أوقات هذه السيطرة بميزات متشابهة يمكن أن نصنفها بمراحل معينة هي:

١ ـ المرحلة الأولى (٨٩٧ ـ ١٢١٣هـ)

وتبـدأ بسقـوط الأندلس بيد النصارى عام ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) والاتجاه إلى السيطرة على العالم الإسلامي، وكانت السيطرة على مواقع صغيرة على سواحل

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.

العالم الإسلامي كله سواء أكان ذلك على سواحل المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط أم على سواحل المحيط الهندي وجنوب شرقي آسيا، وعرفت هذه السيطرة لدى أوربا باسم الكشوف الجغرافية، إذ عرفت بلاداً واسعة لم تكن تعرفها من قبل على حين كان المسلمون يعرفونها تماماً. وهذه السيطرة لاتمثل غلبة تامة إذ لايستطيع النصارى أن يتصرفوا بالأجزاء الداخلية من العالم الاسلامي تصرفاً كاملاً إذ كانت تخضع لأبناء المسلمين خضوعاً كاملاً، وظهر في هذه المرحلة الاستعمار البرتغالي على شواطىء افريقية الغربية والشرقية وجنوبي آسيا، كما ظهر الاستعمار الاسباني في جنوب شرقي آسيا إذ جاء من جهات أميركا بعد أن عرفوها، وذلك حسب تقسيم سري بين الطرفين.

لقد أثرى الصليبيون من برتغاليين وإسبان الأمر الذي جعل بقية الصليبيين يحسدونهم بعد أن كانوا يساعدونهم وذلك لأنهم لم يحصلوا على ما يتطلعون إليه من غنىً وأراض تكون تحت نفوذهم وهيمنتهم وهذا ما جعلهم ينافسونهم، بل أن التنافس حدث بين كثيرٍ من الدول الأوربية للحصول على أرباح كثيرة ومستعمرات أوسع وهذه المنافسة هي التي جعلت الحروب الصليبية تأخذ مظهراً عرف باسم الاستعمار، وفي هذه المنافسة وهذا الصراع تراجعت اسبانيا عن كثير من مستعمراتها، وكذلك فقدت البرتغال عددا كبيرا من المناطق التي كانت تسيطر عليها، وظهرت انكلترا وفرنسا في طليعة الدول الاستعمارية، ثم كانت هولندة، أما روسيا فقد بدأت أيضاً تتوسع في الشرق وبدافع صليبي أيضا، إذ كانت تقاتل التتار المسلمين وتستولي على أراضيهم منطقة إثر أخرى، كما كانت تحارب العثمانيين الذين استطاعوا فتح مدينة القسطنطينية حاضرة الدولة الرومانية الشرقية التي تتبع المذهب النصراني الارثوذكسي وهو المذهب نفسه الذي ينتشر في روسيا كلها، وبعد أن احتلت بلاد التتار بين عامي ٩٦٠ ـ ١١٩٨هـ تقدمت إلى الشرق فاجتازت جبال الأورال، واحتلت سهوب القيرغيز. وإذا كانت الدول الأوربية الواقعة في الغرب من القارة قد سيطرت على مناطق بعيدة عنها إلا أن سيطرتها قد اقتصرت على المناطق الساحلية وعلى أجزاء منها فإن دولة روسيا الواقعة في الشرق من القارة قد ابتلعت المناطق المجاورة لها، وما ذلك إلا بسبب بعدها عن البحار الحرة التي حرصت كثيراً على الوصول اليها. ولا تزال تحرص.

امتازت هذه المرحلة بالروح الصليبية الحاقدة لذا فقد كثرت أعمال التخريب والإبادة الجماعية والتصرفات الوحشية، ولم يكن للمسلمين قوة كبيرة، ولم تكن دولتهم مجتمعة وإنما متفككة، وأقوى مافيها الدولة العثمانية التي نشأت حديثاً والتي قامت تقـاتل أوربا لتخفف ضغط أوربا عن المسلمين في بقية جهات العالم. وكانت المستعمرات تنتقل من دولة إلى أخرى أو تتقاسمها فيما بينها. وكان نتيجة هذا كله أن ضعف المسلمون سياسياً واقتصادياً، وبدأت تظهر عندهم الهزيمة النفسية، واستمـرت هذه الحملة حتى عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) حيث جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر.

٢ ـ المرحـلة الثانية (١٢١٣ ـ ١٣٣٧ هـ :

وقـد بدأت هذه المـرحلة بقـدوم الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) وقد زاد الجشع الأوربي، وكثرت الأطماع، وانطلق الجميع يبحثون عن الثراء ويعملون له، وقد قلت الأموال التي كانت تُجنى عما كانت عليه سابقاً اذ كثر طالبوها وكثرت الحروب التي تلتهم المزيد من الثروات، وتستنفذ العظيم من الطاقات سواء أكانت هذه الحروب بين الدول الصليبية الاستعمارية، أم ضد الإمارات الاسلامية أم لإخماد الحركات الداخلية، أم حرب صليبية سافرة ضد العثمانيين.

شعر المسلمون بما نزل بهم فقاموا برد فعل ضد الصليبيين، وقادهم العلماء، وكان في كل مكان حركة، ولكنها كانت غير منظمة إذ لم تقم في وقت واحد، لذا كانت الجهـود مبعثـرة الأمـر الـذي سهل القضاء عليها فأصاب المسلمين الضعف نتيجة ذلك، واتجه بعضهم الى تقليد الصليبيين، واقتنعوا أن في هذا التقليد سيرا نحـو التمـدين وتقـدما نحو القوة، وابتدأ بذلك الوهن إذ سمح للنصـارى بافتتـاح المـدارس الخـاصـة، والتقاضي أمام محاكم خاصة، وسمح للأجانب بتملك الأرض، وتسلم المناصب، ودخول المجالس المحلية، وأصبح كلا الطرفين من نصارى محليين وأجانب عيوناً على المسلمين يرصدون كل حركة، ثم تبعتهم الفرق الضالة، كما كان اليهود من البداية أعوانا، وأصبحت الطائفية تلقى كل دعم وعون من الأجانب.

قاوم الأجانب العلماء ووقف قسم من الشعب وراءهم، ووقفوا ضد الهجمة الصليبية، وكـانت حركـات الجـزائـري، والمهـدي، ومحمد عبد الله حسن في الصومال، والحاج عمر في غربي إفريقية، وعمر المختار في ليبيا، والأمير رابح في تشاد، وسلطان تيبو في الهند، وكانت الجمعيات الإسلامية الكثيرة في أندونيسيا وغيرها، ووجه الصليبيون همهم لعزل علماء المسلمين عن الشعب.

كانت قارة افريقية نتيجة الهجمة الصليبية مقسمة بين فرنسا وانكلترا مع بعض الجيوب للبرتغال، وايطاليا، وألمانيا، وبلجيكا واسبانيا. وكانت آسيا بيد روسيا وانكلترا وفرنسا مع بعض الجيوب لهولندا والبرتغال، وكانت الدولة العثمانية في غربي هذه القارة.

٣ ـ المرحلة الثالثة (١٣٣٧هـ ـ ١٩١٨م) :

وبدأت بانتهاء الحرب العالمية الأولى (١٣٣٧هـ ـ ١٩١٨م) واستمرت حتى يومنا هذا، فقد هزمت ألمانيا فقسّمت مستعمراتها بين الدولتين العظميين آنذاك فرنسا وانكلترا، وهزمت مع ألمانيا الدولة العثمانية فقطّعت أجزاؤها، ولم تستفد روسيا كثيرا، إذ قامت فيها الثورة الشيوعية وقامت الحركات في كل مكان ضد حكام روسيا الجدد ثم لم يلبثوا أن تمكّنوا من السيطرة على الوضع وعادوا إلى سياسة القياصرة الذين انتهى حكمهم، فأعلنوا حربهم على المسلمين من جديد، فذبحوا وشرّدوا واضطهدوا مامكّنهم من ذلك هواهم، وشدّدوا القبضة على مناطق المسلمين.

وألغيت الخلافة التي كانت رمزاً لوحدة المسلمين الأمر الذي زاد من تفككهم وأصبحوا لامثل لهم، يسير كل حسب هواه دون نظر إلى أثر إسلامي كبير.

واختلفت أسـاليب الاستعـمار بين دولـة وأخرى فانكلترا مثلاً بدأت تعطي مستعمراتها شيئاً من الاستقلال الذاتي، وان كانت تحتفظ بالسيطرة، وقبض اليد على المراكز الهامة والحيوية كالجيش والاقتصاد والسياسة الخارجية، وأعطت أعوانها الحكم فقدّروا لها الجميل، وبقوا رهن إشارتها، أما بقية الدول الاستعمارية فقد أبقت كل شيء تحت سيطرتها وتحت ناظرها أو ابتلعت مستعمراتها ابتلاعاً كما فعلت روسيا، أو كما حاولت فرنسا في الجزائر، والبرتغال في غينيا بيساو، وتيمور،

واسبانيا في الصحراء المغربية.

وجاءت الحرب العالمية الثانية وهزمت فيها إيطالية فأخذت منها مستعمراتها ووضعت إسماً تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة التي تأسست عقب الحرب العالمية الثانية، وفعلاً فقد كانت تحت تصرف الدول الكبرى التي تسير الأمم المتحدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وانكلترا، وفرنسا.

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأت الدول الإسلامية تحصل على استقلالها الذاتي، أو الاستقلال العسكري فقط إذ تنسحب الجيوش المحتلة من أراضيها، ولكن بقيت هذه الدول المستقلة خاضعة للأفكار الغريبة عنها، والتي عمل المستعمرون الصليبيون على تنشئة الأجيال المسلمة وتربيتهم عليها بما وضعوه من مناهج، وما بثوه من أفكار ومعلومات مشوهة، نقلها عنهم طلاب العلم واستمروا يلقنونها لأبنائهم.

كان الصراع واضحاً بين الدولتين الكبيرتين فرنسا وانكلترا، ثم حلّت الولايات المتحدة محلهما عن طريق الانقلابات العسكرية أو السيطرة الاقتصادية، وفي الوقت نفسه ظهرت روسيا التي كونت لها امبراطورية واسعة في منافسة الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين في المجالات المختلفة، وفي كل ميدان من مناطق النفوذ إلى الصراعات السياسية والعسكرية التي تبدو أحياناً وتختفي تارة أخرى، وإن كان التفاهم يأخذ مكانة سراً لتقاسم بعض الجهات المتنازع عليها أو للتفاهم على توزيع المصالح وأخذ، الثروات بين العملاقين المختلفين ظاهراً في بعض الجوانب وحقيقة في جوانب ثانية.

استمرت انكلترا تعطي مستعمراتها شيئاً من الاستقلال، وشكلت منها رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث) لتحتفظ بسيطرتها أو نفوذها في هذه الجهات على حين شددت فرنسا قبضتها على مستعمراتها الأمر الذي جعلها في غليان دائم وتنفصل عنها الواحدة إثر الأخرى حتى اضطر الرئيس الفرنسي (ديغول) أن يعطي المستعمرات شيئاً من الحرية في اختيار الحكم الذي تريده علّه يحتفظ ببعض النفوذ، فانفصلت بعض الأقاليم عن المجموعة الفرنسية، وشكل بعضها الآخر مجموعة خاصة عرفت بالشعوب الفرنسية. وهكذا نال كثير من الأمصار استقلاله عام ١٣٨٠ (١٩٦٠م) وخاصة في افريقية، ولم يبق من العالم الإسلامي

خاضعاً للسيطرة الاستعمارية إلا ماكان خاضعاً للسيطرة الروسية، وبعض أجزاء التركستان الشرقية التي ضمت الى الصين، وكشمير التي احتلتها الهند، وفلسطين التي اغتصبها اليهود، وإن كان عدد من الدول الافريقية تحكمها أقلية نصرانية وتسيطر عليها سيطرة تامة مثل سيراليون، وساحل العاج، والتوغو، والبنين، و إفريقية الوسطى، وتانزانيا، وقد يكون بعض الحكام من النصارى ولهم نفوذ كبير مثل: السنغال، ولبنان، وغيرهما.

استقلت أكثر أمصار العالم الإسلامي، ولكن لاتزال تخضع للسيطرة الاقتصادية والتـأثـيرات الفكـرية التي حرصت الـدول الاستعمارية الصليبية على بثّها مدة سيطرتهـا، ولاتزال هي السائدة بسبب ضعف الشخصية وعدم تنميتها بصورة متميزة ومستقلة عن غيرها، كما لاتزال الهيمنة السياسية تطغى على عدد من أجزاء العالم الإسلامي، وعندما يحاول جزء أن يتفلت من الإطار الذي يدور فيه يتغير الوضع بصورة سريعة، ويغيب الذي يحاول التفلّت، ويأتي من هو أكثر ارتباطاً بثوب جديد.

هكـذا وجـدت دول إسلامية وهي التي يغيش على أرضها أكثر من ٥٠٪ مسلمين بغض النظر عن عقيدة حكامها أو اعترافهم بأن دولهم اسلامية أو وجود تبـاين في الإحصاءات المختلفة المصادر، وبدأت هذه الدول يتجه بعضها الى بعض، وتلتقى في مؤتمرات وكانت فكرة العالم الإسلاي الذي بدأ يأخذ دوره في المحافل الدولية وكافة المجتمعات.

هذا وضع الأمصار الإسلامية بعامة في العصور الحديثة التي ابتدأت حسب العرف الأوربى بسقوط الأندلس بيد النصارى الأسبان عام ٨٩٧هـ (١٤٩٢م)، وهذا وضع المسلمين في هذه المدة، وسنحرص على دراسة كل مصر من الأمصار الإسلامية في هذه العصور، ودراسة المراحل التي مرّ عليها حتى وصل إلى ماهو عليه الآن، وستكون دراسة البلاد العربية في آسيا تليها البلاد الإسلامية في القارة نفسهـا فالأقليات المسلمة التي تعيش في هذا الجزء من العالم، وهذا مايشمله القسم الأول من الكتاب، أما القسم الثاني فيضم البلدان العربية في أفريقية فالبلدان الإسلامية في القارة نفسها فالأقليات المسلمة، وفي النهاية نتعرض بلمحة سريعة للمسلمين الذين يعيشون في القارة الأوربية، كما نتكلم باختصار عمن

يعيش من المسلمين خارج البر القديم في كل من أمريكا وأوقيانوسيا وذلك من أجل أن نعطي فكرة عامة عن تاريخ العالم الإسلامي في العصر الحديث، وفي الواقع أن كل مسلم أينما عاش فإنما يرتبط بالعالم الإسلامي، وجنسيته المسلمة إنما هي عقيدته، فإن وقفنا في هذا العرض فهو من فضل الله علينا وإن كانت الأخرى فعذرنا أننا اجتهدنا وعملنا.

والله نسأل التوفيق وسداد الخطى، فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيـم.

إسماعيل أحمـد ياغـى

محمـود شاكـــر

obeikandl.com